

## بسم الله الرحمن الرحيم

### المقدمة

في زمن تكالب المحن على المسلمين دعا بعضهم إلى تجديد الدين، وآخرون إلى تأويل النصوص الشرعية تأويلاً حداًثياً، وآخرون إلى إقامة رابطة تتأسس على الإنسانية المحضبة بدلاً من الرابطة الدينية، وآخرون إلى إسقاط الدين الإلهي من الاعتبار بالكلية واعتناق الدين الإنساني ظناً أنه يوحد البشرية، ويوقف الحروب فيشيع السلام بين الأمم، ويكون دفعاً للتقدم المادي.

وقد جاء هذا البحث ليكشف معالم الإنسانية، وجذورها، ونشأتها، وملامحها في السياق العربي، ومبانيها، وأوهامها وتناقضاتها، ومآلات التزام الدين الإنساني، ومركزاتها، إن هذا البحث يضع الدين الإنساني في ميزان العقل وقسطاس النقل.

ومما كشف عنه أن المكوّن الصالح في الإنسانية موجود في أتم صورة في الإسلام، كما حدّد مكانة الإنسان في الإسلام ووجوه تكريمه فيه، وأثبت أن تشريعات الإسلام لم تكن مجرد تعاليم مثالية لا وجود لها في الواقع، بل ثمة تحققات تاريخية كثيرة تشهد بتفوق المسلمين على سائر الأمم لما كانوا آخذين للكتاب بقوة.

### الفصل الأول: معالم الإنسانية

#### التعريف

ظهر مصطلح الإنسانية Humanism لأول مرة في الثقافة الغربية في أوائل القرن التاسع عشر عام ١٨٠٨م، مع إن مدلول الكلمة كان موجوداً منذ وقت طويل.

الإنسانية Humanism في السياقات الحديثة هي: عقيدة، مجموعة من السلوكيات، أو طريقة للحياة متمركزة حول اهتمامات الإنسان أو قيمه، كفلسفة ترفض ما فوق الطبيعة، تعتبر الإنسان موضوعاً طبيعياً، تؤكد على الكرامة الأساسية وقيمة الإنسان وقدرته على تحقيق الذات من خلال العقل والمنهج العلمي التجريبي. وبالجملة فإن النزعة الإنسانية كمصطلح في الثقافة الغربية الحديثة معقد وملبس وليس له تعريف دقيق.

الإنسانية، الإنسانية، الإنسانية، الإنسانية، النزعة الإنسانية، المذهب الإنساني، الدين الإنساني، الهيومانية، مصطلحات لها أبعاد متشعبة ومصطلحات يراد بها في الجملة رفع قيمة الإنسان – وتأليه أحياناً – وجعله في مركز الكون.

اختير هنا للتعبير عن هذه النزعة لفظ الإنسانية لا الإنسانية للدلالة على المبالغة والغلو في ذلك المذهب بصيغته الغربية الحديثة.

## المبادئ الناظمة للنزعة الإنسانية هي:

١. التوجه إلى الإنسان وحده والانفصال عن تشريع الإله.
٢. التعويل على العقل وحده والانفصال عن توجيه الوحي.
٣. التعلق بالحياة الدنيا وحدها والانفصال عن أية دلالة أخروية.

## الجزور

النزعة الإنسانية في الفكر الأوروبي كانت مرتبطة بسياق تاريخي هو الذي شكّل طبيعتها وهويتها، وبلور ملامحها ومحدداتها، وتمتد جذور النزعة الإنسانية من العصر القديم حتى العصر الحديث، مرورًا بالعصور الوسطى وعصر النهضة الأوروبية.

## أولًا: العصور القديمة

- الفريق الأول: الإنسان غاية في ذاته، وهو مقياس كل شيء، ومناصرين للمساواة الإنسانية، يمثلهم: الرواقيون، ديموقريطس، بروتوغارس وغيرهم.
- الفريق الثاني: مناصرين لنظرية اللامساواة الطبيعية، وتأسيس العرق على القانون الطبيعي وتقسيم الناس إلى عبيد ونبلاء بالفطرة، يمثلهم: سقراط وأفلاطون وأرسطو.

أما مفهوم الكرامة فلم يكن متداولًا في الثقافة الإغريقية ولا الرومانية، وكانت صفة للخاصة المميزة من النبلاء، في حين أن الغالبية لم يكونوا سوى عبيد.

## ثانيًا: القرون الوسطى

كان الجهد العقلي منصبًا بشكل كبير على اللاهوت، واكتست المسيحية بروح الكآبة والقلق، واستلهمت تعاليم القديس أوغسطين في مذهبه الذي هو أشد المذاهب تنديدًا بالإنسان وتخويفًا له من نار الجحيم، فكان عند الناس في العصور الوسطى رغبة شديدة في العزوف عن الدنيا والتأمل في اللاهوت واليوم الآخر، والتنقص من مكانة الإنسان واحتقار الجسد.

## ثالثًا: عصر النهضة

التوجه إلى إحياء كتابات الإغريق والرومان القدماء التي كانت ذات طابع دنيوي، وركزت الفنون والآداب على الإنسان، ومع ذلك كان إنكار وجود الخالق نادرًا، ومع ظهور الثورة العلمية في القرن السادس عشر صار الناس في أوروبا يؤمنون بأن العقل البشري قادر على سبر أغوار الكون.

هذه المرحلة شكلت بداية ظهور خطاب يتناول الإنسان مفهومًا فلسفيًا، واعتبر بعضهم كانط المؤسس الأول للفلسفة الإنسانية، باعتبار أن الإنسان مركز الاهتمام في الفكر، وتحويل الشأن الاجتماعي إلى مادة للتفكير والتأمل النظري.

مرّت النزعة الإنسانية باهتزازات ونزاعات داخل التيار، وظهرت الإنسانية الراديكالية في القرن التاسع عشر والعشرين، ومن أبرز زعمائها فرديناند شيلر، الذي جعل المعرفة أمر إنساني تابع للأغراض الحيوية، وما يترتب عليها من نتائج خاضع لتأثير الإنسان.

#### رابعًا: العصر الحديث

ظهر البيان الإنساني الأول في ١٩٣٣م، على يد روي سيلرز وريمون براغ، وعُرفت الإنسانية باعتبارها حركة دينية تهدف للتعالي وتجاوز الأديان السابقة ذات الأصل الإلهي.

ظهر البيان الإنساني الثاني في ١٩٧٣م، على يد باول كرتز وإدوين ويلسون، بهدف تحديث واستبدال البيان السابق، وتجلّت قطيعة أعظم مع الدين ونزوع أكثر إلى الإلحاد، بينما كان البيان الأول أكثر تصالحًا مع الدين.

ظهر البيان الإنساني الثالث في ٢٠٠٣م، بواسطة الجمعية الإنسانية الأمريكية.

كما طرح ستيفن لو سباعية تمثل رؤية كلية للإنسانيين خلاصتها:

١. تخضع جميع المعتقدات للاستقصاء العقلي.
٢. الإنسانيون إما ملحدون أو لا أديون، يشككون في وجود إله أو آلهة وفي وجود كيانات فوق للطبيعة.
٣. إنكار الحياة بعد الموت بما فيها من جزاء وحساب.
٤. إيمان شديد بوجود وأهمية القيمة الأخلاقية التي تستمد من دراسة الطبيعة الفعلية للبشر وما يساعدها على الازدهار في هذه الحياة.
٥. التأكيد على الاستقلال الأخلاقي الفردي.
٦. الإيمان بوجود معنى للحياة دون أن يهبهم الإله إياها.
٧. الإنسانيون علمانيون يفضلون المجتمع الديمقراطي الحيادي.

#### المنظمات الإنسانية

وجد رموز الإلحاد الجديد أن التبشير بالإنسانية أكثر قبولًا عند الناس من التبشير بالإلحاد المجرد، لذا أنشؤوا المنظمات الإلحادية ذات الطابع الإنساني، ومنها:

- الاتحاد الإنساني والأخلاقي الدولي، وهي الجهة التي تمثل الحركة الإنسانية العالمية الآن.
- مجلس الإنسانية العلمانية.
- الأكاديمية العالمية للإنسانية.
- الجمعيات الإنسانية: الأمريكية، والبريطانية، وفي إيرلندا، وفي كندا.

ولهذه الجمعيات عموماً أيقونة موحدة وهي رمز الإنسان السعيد الرافع يده إلى الأعلى دلالة على الانتصار والبهجة والتفاؤل.



من أنشطة هذه الجمعيات: الترويج للإلحاد، السعي للقضاء على التمييز ضد الملحدين، ومعارضة التعليم الديني في المدارس، والدفاع عن المرتدين عن الإسلام، وإقامة مؤتمرات سنوية ولقاءات شهرية، وتنظيم الاحتفالات للمجتمع اللاديني.

من الأعياد الإنسانية: اليوم الإنساني العالمي في ٢١ يونيو، ويوم داروين في ١٢ فبراير، ويوم حقوق الإنسان في ١٠ ديسمبر، ويوم الضوء الإنساني في 23 ديسمبر.

ظهرت مؤسسات إنسانية عربية مثل: منظمة الإنسان العربي، ومؤسسة مؤمنون بلا حدود، وليس كل من التحق بهذه المنظمات ملحدًا أو لا دينيًا، لكن المحصلة والنتيجة المشتركة لهذه الجمعيات هي محاربة الأديان عموماً والإسلام خصوصاً صراحة أو تحت غطاء محاربة التطرف.

## الفصل الثاني: إشكاليات الخطاب الإنساني

### مدخل

شيدت على قواعد المذهب الإنساني أفكار متناقضة، منها الليبرالية، الاشتراكية، الوجودية، العدمية، الفاشية، النازية... إلخ، وفي هذه الصفحات عرض مختصر لتقاطعات الفكر الإنساني مع بعض هذه المذاهب وبيان مآلاتها، وكشف لأوهامها وتناقضاتها.

## نزعة الإلحاد وتأليه الإنسان

استفاد المذهب الإنساني من نزعة الشك، وأصبحت الإنسانية متوافقة مع الإلحاد واللا أدرية، ومما ساعد على ظهور الإنسانية:

١. بعد أن ترسخ لدى الاتجاه العام في الفكر الغربي مقولة أن الدين الموروث هو المسؤول عن كافة صنوف التزُّم والجهل والشر في العالم، وعليه أن ينتهي بكافة معتقداته.
٢. غرور الإنسان بما اكتشفه من أسرار الكون، فجعل نفسه قيمة عليا حاکمة بذاتها على المفاهيم والتصورات، حتى لو كانت هذه المفاهيم دينية.
٣. مع انتشار العلم والاكتشافات العلمية توارت التألّيهية تدريجيًا، ونشأ نقد الدين القائم على النظريات العلمية.

## موقف الإنسانيون من الدين

تهكم بعضهم بكل ما هو ديني؛ لاعتقادهم أن التقدم مستحيل في ظل الدين، وعليه لم يعد لديهم اختيار سوى التضحية بالدين وكل ما هو ذو قدسية.

كما يؤديها عدد من الدينين العلمانيين الذين يقبلون بإمكانية وجود منظومة أخلاق وحياء ذات معنى حتى في غياب الإله، وقد يتشاركون مع الإنسانيين في كثير من أهدافهم. ومن المتفق عليه أن الدين قد فُرع عن محتواه عند تلك الطائفة، فصارت تتقبل حزمة من رؤى الإنسانية المفارقة للدين.

وصار منهم من يعتنق الدين المجرد من الطقوس، وبدل أن يكون الإنسان في خدمة اللاهوت صار على اللاهوت أن يخدمه، وإن كان من معنى حقيقي للدين، فهو في تمجيد الإنسان وجعله مركز الكون حسب اعتقادهم.

وهذا أثر لتصورهم المغلوط للدين حيث قصره أولاً على الطقوس اللازمة، ثم حصروه لاحقاً في المنفعة المتعدية. أما الإسلام فقد جمع بين معاملة الخالق ومعاملة المخلوق، فالإحسان دخل فيه: التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله.

### موقف الإنسانيين من الإنسان

اعتُبر التنوير تعبيراً عن فكرة التقدم، وهدفه تحرير الإنسان من الخوف وجعله سيداً؛ وألغت فكرة الذات وفكرة الله المرتبطة بها، وأصبح محط التقديس الحقيقي والكمال هي الإنسانية جمعاء، والإنسان هو المصدر المطلق المخصص بشكل واسع للخير والقوة في الكون.

وتمجدت الفلسفات الإنسانية الإنسان وقدرته بشكل يشبه إلى حد كبير الطريقة التي يمجّد بها الخالق في الدين، وصارت - في نظرهم - إرادة الإنسان لا إرادة الرب، هي المعين المعترف به لأسباب تحسين العالم وتحرير البشرية، وصوّرت اللات الأربعة كيف ألّه الإنسان نفسه وتعدى حدوده: (لا سلطة فوق الذات، لا قيم أخلاقية إلا من طريق منافع الذات، لا سعادة إلا من طريق إشباع الذات، لا حقيقة إلا من طريق معرفة الذات).

### جوهر الإنسانية

الإيمان الأعلى بالعقل البشري، ورفض القوى الأسطورية، بما في ذلك قوة الإله، وما فوق الطبيعة، ووصلت درجة تأليه العقل إلى أن أصبح المزاج الحديث يتجنب العاطفة بل ويزدريها.

وهكذا قامت الإنسانية على اعتبار الإنسان مصدر المعرفة، وأن خلاصه يكون بالقوى البشرية وحدها، الاعتقاد الذي يتعارض مع جميع الأديان؛ فالأديان تعتقد في خلاص الإنسان بالله وحده.

### الإنسانيون العرب

#### أولاً: محمد أركون

١. هو من أكثر من لهج بالأنسنة والإنسانية من العرب، وينسب لنفسه أولية إدخال مفهوم الأنسنة إلى التداول العربي.

٢. يعرفها بأنها عملية الانتقال من عالم يسيطر فيه المقدس إلى عالم يسيطر فيه الإنسان، ولا وجود لمثال أعلى خارج المجتمع أو خارج الإنسان.

٣. ويقول إن الثقافة الإسلامية عرفت النزعة الإنسانية منذ القرنين الثالث والرابع الهجريين، واستشهد بأسماء مثل: ابن رشد وابن سينا وغيرهم.

٤. هذه النزعة تشبه النزعة الإنسانية اللاحقة في عصر النهضة، وتأسف على موتها بسبب الحركات السلفية الأصولية.

٥. دعا إلى نبش نصوص المتقدم ذكرهم -ابن سينا وابن رشد وغيرهم-، وشرحها وإدراجها في برامج التعليم منذ المرحلة الثانوية.

٦. يرفض بناء الأنسنة على التعاليم الدينية ويدعو لتبني الموقف الفلسفي بدلاً عنها.

٧. بالنسبة له فإن الأديان مثلها مثل الدول الحديثة العلمانية تدين العنف أخلاقياً، وتباركه وتدعو إليه عندما يتعلق الأمر بالدفاع عن الحقيقة كما تفهمها هي.

٨. في نظره إشكالية الأنسنة والتأويل في جوهرها تطرح مسألة علاقة الإنسان بالنص، خاصة النص المقدس والمؤسس، أي مسألة أسبقية الإنسان على النص أو النص على الإنسان، وهل الإنسان -الفرد المتغير- هو الذي يحدد معنى النص، أم النص هو الذي يحدد معنى الإنسان ويبلور هويته ويرسم حدوده؟

ثانياً: بد الرحمن بدوي

يقول: أن كل دين في أصله رمز قابل لما لا نهاية له من أنواع التفسير التي قد يبلغ الفارق بينها حد التناقض، وكلما تعددت هذه التفسيرات وافتقرت -أي تناقضت- كان هذا دليل على إن هذا الدين حي وخليق بالبقاء.

ثالثاً: نصر حامد أبو زيد

يقول: "لا ألتقي بنفسي وإنسانيتي إلا بالخروج كلياً من الرؤية الدينية الوجدانية".

رابعاً: علي حرب

يقول: "الإنسان في الرؤية الإنسانية هو مرجع ذاته والمسؤول عن تحقيق مصيره، والمشجع لمجتمعه وممارساته".

**الرؤية الإنسانية للفرد**

الفرد هو سيد نفسه، ومصدر التشريع، باعتباره صاحب تفكير حر، وغير محتاج إلى موجه لا خالق ولا دين ولا عرف.

**تنبيه**

ليس كل من دخلت عليه الإنسانية أصبح ملحدًا منكرًا للخالق بالضرورة، ولكن ذلك طريق هذه نهايته، فمن الإنسانيين من يصل إلى النهاية ويلتزمها، ومنهم من يقف في المنتصف متناقضًا، ومنهم من لا ينكر وجود الخالق ولكنه ينكر وجود النبوات والحاجة إلى الشرائع المنزلة.

**دين الإنسانية والبعد التجاوزي**

لما اتخذت الإنسانية لنفسها صبغة التعالي والتجاوز مع أصلها الأرضي المُدعى، كان من المتوقع جدًا أن تتحول إلى دين جديد لا يختلف عن الأديان الوضعية الأخرى، وهي وإن لم تكن دينًا فإنها بالتأكيد تتصرف كأحد الأديان، وهذا الدين هو العلم التجريبي، وهو دين بلا وحي.

عندما يُعرّف شخص نفسه بأنه إنسانوي، فإن ذلك يستبطن مخالفته ورفضه لمن لا يوافق في تصوره عن الإنسان، وإن ادعى أنه يستوعب الجميع.

لذلك فإن تركيز الإنسانية على الإنسان ليس بالبراءة التي تبدو عليها اليوم، فمنطلقات الإنسانية كانت متحيزة مسبقًا؛ إذ أن تفسيرها للكون كان استبعادًا لما سواه من التفسيرات، لأنها كانت ردة فعل على المسيحية وعلى الكنيسة.

تعتبر الإنسانية نفسها متجاوزة للأديان ومرتالية عليها؛ فالمشروع المركزي للتنوير الذي سُوِّد المذهب على أساسه كان استبدال الأخلاق المحلية والعرفية والتقاليد وكل أشكال الإيمان المتعالي بأخلاق نقدية وعقلانية.

فالعلمانية وثقافة الإنسانية هما التربة التي نبتت فيها الحركات المفارقة للدين، مثل: الاشتراكية والنازية والفاشية، وكشف طابعها بوصفها تديُّنًا بديلًا قد يكون أول الطريق في نهج إسقاطها.

## النسبية الأخلاقية

النسبية الأخلاقية هي القول بأن الأفعال الصائبة أخلاقيًا تختلف من ثقافة إلى أخرى، وليس هناك صواب مطلق في مجال الأخلاق، وترجع جذور هذه النزعة إلى السوفسطائية التي تؤكد على نسبية القيم وسلطة الحواس، ورد كل شيء إلى الإنسان، وزعمت بأن الحقيقة المطلقة لا وجود لها.

ويلجئ الإنسانويون على أن الأخلاق لا تُستمد من دين وليست مرتالية على المادة، وإنما فرضتها الطبيعة واستحسنها التجربة.

والإنسانية تنكر وجود معيار أخلاقي واحد، يقبل التطبيق بقدر متساوٍ على جميع الناس في كل زمان، إنما هناك عدة قوانين ومعايير أخلاقية، وهذا الموقف نوع من النسبية الأخلاقية، فلا بد من التأكيد على حرية الفرد في اعتناق ما يراه من مبادئ أخلاقية.

ولا تقتصر أخطار النسبية الأخلاقية على النظرية الأخلاقية فحسب، بل تجنح إلى إحداث آثار مدمرة على السلوك العملي أيضًا.

والإنسانية تقوم على النفعية والقيم النسبية، مما يسبب الفساد الأخلاقي العريض. ثم إن الديمقراطية التي هي الوجه السياسي للإنسانية لفي خطر؛ إذ يعث بها أهل نسبية الأخلاق، إلى أن تفشل الديمقراطية في الدفاع عن المطلق الإنساني.

والإنسانويون يُبدون في خطاباتهم قدرًا من الصلابة الأخلاقية حيال ما يعتقدونه صوابًا أو خطأً، دون أن يوضحوا القاعدة التي تتأسس عليها هذه الصلابة الأخلاقية، وإذا أرادوا التوضيح أحيانًا فإما أن يقعوا في إشكالية التسوية النفعية البراغماتي للأخلاق، والذي يفقد القيم الأخلاقية قيمتها، أو يقعوا في تقرير نسبيتها بما يفقدها قيمتها المطلقة.

من آثار المذهب الإنسانوي انتشار نزعة الأنا والفردانية في مقابل الحفاظ على تماسك الأسرة، وهذه الفردانية الغالية تؤدي إلى نوع من النرجسية التي ترتد في كل أمر إلى ذاتها، وتؤدي إلى تغليب حقوق الفرد على حقوق المجتمع.

## الداروينية والتفرد الإنساني

النظرية الداروينية مركزية في الخطاب الإنسانوي، ويقولون بأن أي إنسان ينكر التطور فهو إما جاهل أو مجنون أو شرير.

مبدأ المساواة الإنسانية الذي لهجت به الإنسانية وانتحلته يستمد جذوره من المادية نسقًا فلسفيًا، واتجاهًا في علم الاجتماع. وهناك تناقض واضح بين مبدأ الإنسانية والدارونية، وقد ذهبت الدارونية بتطبيقاتها في علم الاجتماع إلى رفض المساواة الإنسانية رفضًا تامًا؛ فهذا تناقض فاقع بين المساواة الإنسانية كأهم مبادئ الفكر الغربي الحدائي، وبين الدارونية التي تعتبر العنصر الرئيسي في الفكر الحدائي الغربي أيضًا.

### موقف نيتشه من الدارونية

١. رأى نيتشه الدارونية بما فيها من نزعة تطورية ميكانيكية سببًا لتصغير الذات وتدمير إيمان المرء بكرامته وتفردته؛ فالعلوم الطبيعية حوّلت الإنسان حرفيًا إلى حيوان.

٢. قسّم الأخلاق إلى أخلاق أسياد وأخلاق عبيد، ودعا إلى تأسيس أخلاق القوة، ورأى أن أخلاق المساواة في الحقوق هي أخلاق القطيع.

وعلى أساس فكرة التفاوت بين الأجناس وفق الرؤية التطورية، اعتبر الأوروبيين غيرهم كالهنود والأفارقة والآسيويين وغيرهم من أشباه الإنسان، ثم رسّخت ذلك العقيدة الدارونية.

### ملاحظات حول نظرية التطور

فيما يتعلق بصواب نظرية التطور من عدمه، فإن هذه النظرية قد ألّف الكثير في نقدها من وجهة نظر علمية بحتة لا تعتمد على الدين، فليست حقيقة ثابتة كما يظن بعضهم، وإن كانت لا تزال نظرية مسيطرة على المشهد العلمي الغربي اليوم لأسباب غير موضوعية، إلا أن هناك أيضًا أصواتًا كثيرة ناقدة ومعتزلة عليها.

### الإنسانية الغربية والآخر

الفجوة بين القيم الإنسانية في أوروبا وبين الممارسة الواقعية يمكن أن تكون فجوة كبيرة جدًا، فنزعة الاستعلاء العرقي ليست جديدة على الإنسانين.

### توهُم المركزية الغربية واختطاف القيم الإنسانية

اعتقد كثير من الإنسانين أن الحضارة الغربية البيضاء هي المعيار الذهبي للعقلانية والموضوعية، وأنها محصنة ضد التعصب والعنصرية، ولإيمانهم بتفوق أوروبا على القارات الأخرى، رأوا ضرورة استعمارها لتمدينها، فصوّرت الحضارة الغربية صراعها من أجل الهيمنة على أنها معركة مقدسة للإنسانية ضد البربرية.

ولا زالت الثقافة الأوروبية تتبجح بالنزعة الإنسانية وتتفاخر، وتحاول أن تحتكر فضل السبق بإقرار حقوق الإنسان، في حين أن الديمقراطية الغربية اختطفت العديد من القيم الموجودة في مجتمعات أخرى، واختطفت المذهب الإنساني.

والحوادث التي انْتَهكت فيها حقوق الإنسان في عصر الإنسانية يستحيل حصرها، فإنسانية الغرب إنسانية أوروبية في الداخل وإنسانية استعمارية في الخارج.

ومن معالم الثقافة الغربية التي يراد عولمتها أنها أصبحت تحتكر تقرير ما يُقبل وما لا يُقبل من الأفكار والأخلاق والقيم، وتحديد ما ينفذ وما لا ينفذ من السياسات والتطبيقات.



## الجهاد في الإسلام

الغاية من إعلان الحرب في دين الإسلام هي: إعلاء كلمة الله ونصر المظلومين، ورد العدوان وحفظ السلام. ووجوبه وجوب الوسائل لا المقاصد، فلو أمكن الهداية بإقامة الدليل بغير جهاد كان أولى من الجهاد.

ولا يأمر الإسلام بالتخلي عن المبادئ الأخلاقية ولو في أحلك الظروف، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِذَا حَكَمْتُمْ فَأَعْدِلُوا، وَإِذَا قَاتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مُحْسِنٌ يُحِبُّ الْإِحْسَانَ)، ويمنع الإسلام أعمال التدمير التي لا طائل تحتها واللجوء إلى الوسائل الحربية التي تحدث خرابًا على نطاق واسع.

فقد امتثل المسلمون فعلاً في تاريخهم تشريعات الوحي في الإحسان إلى الغير، وفي إتقان العمل، فلم تكن مجرد مقررات خيالية عريّة عن التطبيق كما هي في الإنسانية الغربية.

## العلمية واحتكار المعرفة

تبني المذهب الإنساني العلم الطبيعي منهجًا وحيّدًا للوصول إلى الحقيقة، فإن المعرفة تُستمد عندهم من الملاحظة والتجريب والتحليل العقلاني.

**الاتجاه العلمي:** ظهر كتيار فكري يحصر طرق الوصول للحقيقة في العلم التجريبي، حتى الأخلاق يزعمون أن مصدرها التطور الطبيعي للمادة.

**مقومات العلم التجريبي:** النسبية، والمدحوضية أو القابلية للدحض، أي أن ما لا يمكن دحضه لا يمكن إثباته، وفي هذا تحكّم وتضييق لأبواب العلم والمعرفة.

**مقاومة العلمية:** تصدى لهذه النزعة عدد من العلماء والمفكرين، الذين كانوا ابتداءً من خارج دائرة العلم التجريبي، لكن ظهر من نقاد العلمية من العلماء ممن لهم صلة قوية بالعلم التجريبي ولديهم معرفة جيدة به.

**الهدف من نقد العلمية:** تعيين حدود العلم، وسلك كل منهم طريقًا يوصل لهذه الغاية، كالرياضيات والفيزياء وغيرها، فيعيدون قراءة القوانين والنظريات العلمية وتحليلها والبحث عن حدود قدراتها.

**نتيجة نقد العلمية:** مما خلص النقاد إليه أنه مهما تكن نظريات علوم الطبيعة كاملة، فلا ينبغي اعتبارها إلا وسائل كلامية ملائمة لفهم الكون، وليس أكثر من ذلك، وأقرّ عندها كثير من المفكرين بأن العلوم الطبيعية لا تتمتع إطلاقًا بتلك الدلالة وذلك المدى المتجاوز.

ويُعد هذا تغييرًا كبيرًا حول تصوّر قيمة النظرية العلمية، فأصبحت النظريات العلمية مرجعًا لعمل العالم فقط، بعد أن كانت مرجعًا للتصديق والتكذيب بالقضايا غير المنظورة.

## من مآزق العلمية:

١. أنها لا تستطيع الإجابة عن سؤال الغائية.

٢. أنه لا يمكنها تأسيس الأخلاق على أرضية ثابتة، فيعسر على الواقعية العلمية أن تحتل القيم الإنسانية.

## الدولة والعلمانية

انتشر الفكر الإنساني و اخترق الرأي العام في كل مكان، وأصبح المذهب الإنساني ليس أكثر من عبارة مباركة يمكن الاعتماد عليها لإثارة استحسان الجمهور، واستفاد اليهود خصوصًا من تناميها.

والإنسانية تطلق أحيانًا ويراد بها الدين العلماني للإنسانية، واليوم تميل الكلمة إلى الإشارة إلى: القيم الإنسانية، المداخل العلمانية لا الدينية، الفصل بين السلطة السياسية والحجة الدينية. ويمزج بعضهم بين الأنسنة والعلمانية، ويعتبر كل تيار يتمحور حول الإنسان وهمومه ومشاكله يعتبر تيارًا إنسانيًا أو عقلائيًا أو علمانيًا.

والديموقراطية أحد الملامح الرئيسية للمذاهب الإنسانية البارزة؛ لارتباطها ارتباطًا وثيقًا بأفكار الحرية والمساواة والمشاركة المدنية وحقوق الإنسان.

ومع افتقاد الديمقراطية للقيم الأخلاقية والاجتماعية يظن كثيرون أنها النظام السياسي المثالي؛ تأثرًا بآلة الدعاية الإعلامية التي تدندن بصورة دوغمائية حول الحرية والمساواة وحقوق الإنسان وتقرير المصير، في الوقت ذاته تُنتهك هذه الحقوق في الواقع.

ويقوم الفكر السياسي الغربي بمجمله على أفكار مكيا فيللي في كتابه الأمير، والذي يرى أن الأديان من صنع الإنسان، ويدعو لفصل السياسة عن الأخلاق وجعل الأولوية للسياسة، وأن السياسة كذب ونفاق، ولا مانع من استغلال الشعوب.

وإن كان قد يُرى في بعض الدول الغربية أن حقوق الإنسان غير السياسية قائمة وتحميها القوانين، إلا أنه بالتمعن يظهر أن هذا الحفاظ إنما هو حفاظ على حقوق الإنسان الغربي، أما احترام الإنسان المطلق والعمل على حفظ كرامته فأمر لا صلة له بالكثير من الغربيين.

## العلمانية والإسلام

قد يكون للعلمانية التي تدعي أنها تقف على مسافة واحدة من كل الأديان فضل على ما يسمى بالأديان الروحية لكن الأمر ليس كذلك فيما يتعلق بالإسلام، ومجرد السماح ببناء المساجد والصلاة فيها ليس هو الدين الكامل، وليس هذا وحده ما يُنتظر من المسلمين.

كما ساهمت العلمانية في خداع المسلمين بفكرة الإخاء الإنساني المتعالي على اختلاف الأديان والأعراق، في الوقت نفسه الذي لم تغب فيه مظاهر العداة للإسلام بذاته، وهذا ظاهر في القوانين العلمانية المفصلة لمحاربة انتشار الإسلام وشرائعه كما في قانون منع ارتداء الحجاب .

**اعتراض: قول البعض أنهم يسمحون لنا بالدعوة إلى الإسلام في بلادهم فلماذا نمنعهم من الدعوة إلى دينهم في بلادنا؟**

**الجواب:**

١. إنما يحاكم كل فريق إلى مبادئه، فمن ادّعى تبنيّه لليبرالية فلنلتزم بها طوال الوقت، ومن لم يتبناها أصلًا فلا يُلزم بها.

٢. مثل تلك الإيرادات تنطلق من فكرة التسوية بين الحق والباطل، والهدى والضلال، ومن يرددها لا معيار عنده لمعرفة الحقيقة.

## الاضمحلال وما بعد الإنسانية

زعرغ تيار ما بعد الحداثة مكانة الإنسان، ولم تعد الثقة بالعقل أداة لمعرفة الحقيقة راسخة ومحسومة، كما صوّرت الحرية غاية مثالية لحالمين واهمين، فأول ما ابتغى تيار ما بعد الحداثة نسف شعار التنوير، وشهدت الساحة المعاصرة ازدهارًا ملحوظًا للتيارات الفلسفية المنتقدة للنزعة الإنسانية، كان القاسم المشترك بينها هو هيمنة روح التقويض والتفكيك.

كما ظهرت الإنسانية المتحولة Transhumanism تمييزًا لها عن ما بعد الإنسانية Posthumanism التي جعلها بعضهم الأيديولوجية الموجهة لتقنيات الإنسانية المتحولة ورمزها (+H).

هذا التحول هدفه تغيير حالة الإنسان وتغيير خلقته باستدمج التقنيات المتطورة فيه كآليات الذكاء الاصطناعي والهندسة الوراثية وغيرها مما قد ينشأ عنه كائن آخر مختلف Posthuman وهو إنسانٌ "فائق" حسب النظرية التطورية قد يقضي على الإنسان الحالي أو على الأقل يسيطر عليه ويتحكم فيه.

فالإنسانية سارت بمقولة تجاوز الإنسان إلى نهاياتها القصوى وزادت تأكيد مرحلة العدمية، فهذه النزعة لم تؤدِّ إلا إلى المزيد من استعباد الإنسان واعتباره كينونة لا تتمتع بالحرية والكرامة.

ومن خلال معاينة سيل من المعطيات المعاصرة يستطيع المرء أن يدرك بسهولة الأزمة التي يعانيها الفكر الغربي ويعيشها الإنسان المعاصر، وقد تبلورت هذه الأزمة من خلال طبيعة الحياة الغربية المعاصرة، وحشود الشهادات التي أدلى بها عدد ليس قليل من مفكري الغرب.

### الفصل الثالث:

### الإنسانية في ميزان الدين

#### مدخل

من مرتكزات الإنسانية التي تدعي لنفسها احتكارها: تعظيم الإنسان، والإحسان إلى البشر، والإتقان في صناعة الحياة، والإنسانيون لا ينطلقون في انتحال تعظيم هذه القيم من دين مُتَزَلٍّ أو مرجعية متجاوزة، وإنما يبنون قيمهم على نظريات فلسفية كنظرية الحق الطبيعي وحتمية الصيرورة التاريخية.

يهدف هذا الفصل إلى بيان أن الفضائل التي تنتحلها الإنسانية المعاصرة وتحتكرها ليست من إبداعهم، بل ما كان فيها من خير فهو مسبوق بما جاء به الدين، وخاتم الأديان والمهيمن عليها هو الإسلام، وهذا مثبت بصريح دلائل نصوص الوحيين، وبشروح أئمة الإسلام المتقدمين.

١. ومن المعلوم أن الإسلام دين الكون ومبدأ نظامه، قال جل وعز: {أَفَعَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [آل عمران: ٨٣]، فقد وُجد الإسلام قبل الإنسان.

٢. وخلق الله الناس لعبادته جل وعلا وهو الغني عنهم، فالغرض الذي لأجله أوجد الإنسان أن يعبد الله ويخلفه وينصره ويعمر أرضه، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦].

٣. وقد عرض الله على الإنسان حمل الأمانة فحملها، قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} [الأحزاب: ٧٢]

النتيجة: حقيقة الغاية من الخلق وتحمل الإنسان للأمانة تنقض مقررات الإنسانية من أن وجود الإنسان على الأرض صدفة، وأنه لا خالق ولا نبوات ولا وحي ولا تكليف ولا جزاء.

## تكريم الإنسان في الإسلام

جاءت قصة خلق آدم أبي البشر في عدة مواضع من القرآن، كما تكرر ورود ألفاظ (الإنسان) (الناس) (أناسي) (أناس) (بني آدم) في الكتاب العزيز.

التكريم الإلهي للإنسان جاء في القرآن على وجوهٍ عدّة، منها:

الوجه الأول: خلق الله سبحانه لآدم بيده، والنفخ فيه من روحه، وأمر ملائكته بالسجود له.

وفي ذلك قال جل وعلا: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} [الحجر: ٢٨-٢٩].

الوجه الثاني: إحسان خلقته وصورته.

قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُم بِأَحْسَنَ صُورِكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [غافر: ٦٤].

الوجه الثالث: تخصيصه بالتكريم من بين المخلوقات.

فقد جعل الإنسان سلالة العالم وزيدته، وهو المخصوص بالكرامة، وما سواه كالمعونة له، قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} [الإسراء: ٧٠].

الوجه الرابع: الإقسام به ولا يقسم سبحانه إلا بعظيم.

فقال تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا \* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا \* قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا \* وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} [الشمس: ٧-١٠].

الوجه الخامس: الامتنان عليه بالعقل والتعليم.

قال تعالى: {أَفَرَأَى بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ \* أَفَرَأَى أُفْرَأَ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ \* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ \* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: ١-٥].

الوجه السادس: تسخير الكون له.

لفظ (التسخير) وما تصرف منه جاء في القرآن في أكثر من عشرين موضعًا، وورد هذا المعنى في مواضع كثيرة بألفاظ أخرى، قال تعالى: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمُ} [البقرة: ٢٢]، فإنشاء كل هذا إنما هو {لَّكُمُ} لا لغيركم، فالمستفيد منه بالقصد الأول إنما هم الخلق، والإنسان خاصة.

## الوجه السابع: خلق الطيبات له والجماليات المبهجة.

قال جل شأنه: {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا إِلَهًا مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ} [النمل: ٦٠] وغيرها من الآيات الكثيرة.

## الوجه الثامن: فطرته على الإيمان.

والإنعام عليه بالتوحيد، وتحريره من الشرك وعبادة الأوثان المخلوقة قال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الروم: ٣٠].

وليس على ابن آدم خطيئة أصلية كما في المسيحية، فقد قال تعالى: {وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الأنعام: ١٦٤].

ومن إصلاحه بالفطرة تكميله بالأخلاق التي يفارق فيها سائر الحيوان، فإذا فسد الإنسان في قدرته على أخلاقه ودينه فقد فسدت إنسانيته وصار مسخًا على الحقيقة.

وقد آنس الله تعالى عبده بالقرب وفتح له باب التوبة وأغلق باب القنوط، قال جل وعلا: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة: ١٨٦].

## الوجه التاسع: إرشاده لإحسان المعاملة مع الخلق.

قال الله تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا} [النساء: ٣٦].

والإحسان في الكتاب العزيز قرين العدل، وأمر بالقول اللين الحسن في دعوة الكافر، وأمر بإجارته وإعطائه الأمان عند طلبه الإجارة، ونهى عن الاعتداء، وفضل العفو، وشرع سبحانه الإحسان إلى أصناف من المخالفين في الدين، فأمر ببرّ الوالدين ولو كانا كافرين، وأثنى الله تعالى على من أطعم الأسير، وأباح الإحسان إلى الكفار غير المحاربين .

ومما يجدر التذكير به أن هذا الإحسان الصادر من أهل الإسلام أيام قوتهم تجاه الأمم الأخرى إنما بعثهم عليه امتثالهم لدينهم، وتقديمهم لشرعهم، ولم يكن سببه نزعة إنسانية فلسفية تتعالى على الدين.

## الوجه العاشر: الإنعام عليه بالتشريع الكامل.

تكليف الله للعباد على السنة الرسل ما أراد بها إلا صلاحهم العاجل والآجل وحصول الكمال النفساني لذلك الصلاح، فلا جرم أن الله أراد من الشرائع كمال الإنسان وضبط نظامه الاجتماعي في مختلف عصوره، وتلك حكمة إنشائه.

ومن كمال هذه الشريعة: أنه لم يكلف الإنسان إلا وسعه، ورفع عنه الحرج، وأحلّ له الطيبات، وحرّم عليه الخبائث، ونهى الله تعالى عن الحزن في مواضع من القرآن ولو تعلق بأمر الدين، وأرشد الله سبحانه الإنسان إلى السعي في مصالحه، وامتنّ عليه بجعل الأرض صالحة للعمارة، ولم يأمر بالقعود عن البذل ولو

كان في انتظار الآخرة، وشرع الإسلام حفظ الضروريات الخمس وشرع لحفظها العقوبات والحدود الرادعة، وقد أمر الله بالاعتدال في الإنفاق، ولم يأمر بالقسوة على الجسد، وكل هذه الكمالات لها أدلتها من النصوص الشرعية.

ويتجلى مظهر من مظاهر الوسطية في **النظرة إلى حقيقة الإنسان** حيث تقف مذاهب في الطرف الذي يرى فيه بعداً روحياً صرفاً، ولا يعتبر الجسم إلا سجنًا حُشرت فيه الروح فينبغي معاملته بالمقت لتحريرها، وتلك هي المذاهب الغنوصية الصوفية، وفي مقابل ذلك تقف مذاهب أخرى ترى أن حقيقة الإنسان هي بُعد مادي، وليس وراء ذلك حقيقة روحية، وهذا موقف المذاهب المادية المعاصرة على اختلافها، وفي الوسط بين هذين الطرفين يقف المبدأ الإسلامي ليرى في الإنسان بُعدين متوازنين، بُعداً مادياً وبعُدًا روحياً.

وفي **تفسير الكيان الجماعي للإنسان**، تقف مذاهب في طرف يعتبر الفرد هو الحقيقة الأولى، وليس المجتمع إلا في خدمته بالإطلاق، وتلك هي اتجاهات الفردانية الغالبة Individualism التي تقوم عليها المجتمعات الغربية اليوم في عمومها، وتقف مذاهب أخرى في طرف مقابل فتعتبر المجتمع هو الحقيقة الأولى، فيجب أن يُهدر الفرد لفائدة الجماعة، وذلك ما تقوم عليه الاتجاهات الجماعية Groupism في عمومها كالاشرافية، ويأتي المبدأ الإسلامي في الوسط ليوازن بين الفرد والمجتمع، فبينما تسحق المذاهب الجماعية إنسانية الإنسان، وتؤلُّه المذاهب الفردانية الإنسان، تأتي نظرة الإسلام للإنسان متوازنة، بلا إفراط ولا تفريط.

وأما ما جاء في القرآن الكريم من **آيات تدل على ضآلة الإنسان**، كما في قوله تعالى: {أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ} [المرسلات: ٢٠]، فمسلك القرآن في هذا مختلفٌ عن مسلك الخطاب الإلحادي المفضي للعدمية وفقدان المعنى والغاية من الحياة، بل المراد لفت الأنظار إلى عظمة الخالق جلا جلاله في خلق الإنسان، وتذكيره بأن لا يستكبر عن العبادة، أو يتكبر على الخلق، أو يطلب منزلةً فوق منزلته فيزعم أنه لا يحتاج إلى إله مشرّع.

وأما ما جاء من **آيات يفهم منها ذمُّ الجنس الإنساني** كقوله تعالى: {وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا} [الإسراء: ١١]، {وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا} [الإسراء: ٦٧]. فإن في ذلك كله وفي غيره تحذيرٌ للإنسان من سلوك معائب الأخلاق، وحثُّ له على الإيمان والعمل الصالح، فليس الإنسان مذمومًا من حيث هو، وإنما لكفره إن كفر وأعرض، وإن هو أحسن فهو أفضل من الملائكة.

## مفهوم الدين والمشارك الإنساني

في حين كانت الرؤية الجاهلية للعالم ذات مركزية إنسانية، لا يوجد ولو حقل دلالي واحد في النظام القرآني غير مرتبط مباشرة ولا محكوم بمفهوم الإله المركزي، وهذا معنى أن القرآن ذو مركزية إلهية. وهنا يتبين الفرق بين حقيقة الدين الإلهي وبين الدين الإنساني الذي لا يعتبر إلا الدنيا، ويختزل حقيقة الدين في معاملة الخلق.

ومفهوم المشارك الإنساني لم يكن غريبًا عن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، فقد كان يأمر بالبر والصلة والصدق وينهى عن الظلم والعدوان.. الخ، إلا أنه لا بد أن يُعلم أن هذه المشاركات ليست وحدها الإسلام، بل رأس الأمر هو الشهادتان وعليها قاتل النبي صلى الله عليه وسلم.

فليس المقصود من الدين إقامة الدنيا فقط دون العمل للآخرة، أو الاقتصار على المشتركات الإنسانية، فليس المراد بالشرع مجرد العدل بين الناس في معاملاتهم، فإن أعظم الظلم هو الشرك بالله تعالى، وهو أمرٌ مغاير لظلم المخلوقين.

والوسط في قضية المشترك الإنساني بين طرفين: طائفة جرّدت الإسلام من المعاني الإنسانية، وطائفة أنست الإسلام وحصرته في تلك المعاني المشتركة بين الأمم.

ومن آثار النزعة الإنسانية التي سرت إلى البعض، المبالغة في ملاحظة حظ الإنسان العاجل من العبادات، وعدم ملاحظة معنى التعبد فيها وتحصيل التقوى والتقرب إلى الله عز وجل وقصد الدار الآخرة بالعمل الصالح.

## معيّارُ التمايزِ ومَعقِدُ الولاية

ذَكَرَ اللهُ سبحانه الناسَ بوحدة الأصل البشري، فلا مجال لأعراقٍ عليا وأعراقٍ دنيا كما في الداروينية التطورية التي يؤمن بها المذهب الإنساني.

ولم يعلّق سبحانه كرامة الإنسان بأمر خارج عن إرادته كقوة خلقتة، بل علّقها على تحقيق التقوى، وهي أمرٌ كسبي.

ففي شريعة الإسلام يتمايز الناس حسب موقفهم من الإيمان بالله تعالى وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، لا لأصل خلقتهم، ومحاولة التعامي عن هذا أو تأويله محاولة بائسة.

**ويترتب على هذا التمايز بين المسلمين والكافرين أمران رئيسيان:**

الأول: اختلاف أحكام الشريعة الإسلامية المختصة بالفرد والمجتمع تبعًا للموقف من الإيمان.

الثاني: اختلاف مصير الإنسان في الحياة الآخرة تبعًا لموقفه من قضية الإيمان أيضًا.

**ومن آثار النزعة الإنسانية:**

١. المبالغة في اعتبار مشاعر الكافر، حتى زعموا أن النهي عن سبّ آلهة الكفار إنما هو لمراعاة مشاعرهم الإنسانية.

الرد: ليس الأمر كذلك، وإنما هو حفظ لمقام الألوهية، قال تعالى: {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام: ١٠٨].

ولابد من معرفة أن التمييز بين المسلمين والكفار في بعض الحقوق والواجبات ليس فيه أي قدر من الظلم، بل هو عين العدل؛ فإن الكافر يطرد نفسه بنفسه برفضه الصفة الرفيعة التي يوفرها الدين.

٢. ترخّصهم على بعض المخترعين والمكتشفين من غير المسلمين ممن نفعوا البشرية، أو تفضيل علماء الطبيعة من الكفار على علماء الشريعة المسلمين.

الرد: يكفي في معرفة حكم ذلك قوله تعالى: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [التوبة: ١١٣].

اعتراض: قد يقع في بعض القلوب حسكةٌ من ذلك، إذ كيف تكون النارُ جزءاً من كان ينفع الناسَ في الدنيا؟ هل يكون من العدل الإلهي أن يدخل هؤلاء النار؟

**الجواب:** أن الله سبحانه وتعالى أرحمُ بعباده من الوالدة بولدها، ولا يظلم أحداً مثقالَ ذرّة، ولا يؤاخذ أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وقال عز وجل: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ} [الشورى: ٢٠].

فالكفار الذين نفَعوا البشرية مادياً من مخترعين ومكتشفين وغيرهم قد نالوا نصيبهم ومكافأتهم في الدنيا وحصلوا المجد والثناء والمال والأضواء، وفي أقل تقدير شعروا بتحقيق الذات.

وبعضهم لا يخطر على باله أصلاً مسألة نفع البشرية ولا يعمل إلا بمقابل مادي، فضلاً عن أن بعض الاختراعات والاكتشافات الأخرى التي لم يكن الباعث عليها ابتداءً خدمة البشرية وإنما الهيمنة عليها أو إبادتها، ثم وُجدت لها تطبيقاتٌ سلمية تبعاً.

**من مفرزات الإنسانية** مصطلحاتٌ من قبيل (الأخ الكوكبي) و(الأخ الكوني) و(الإنسان العالمي)، التي تتضمن الدعوة لما يعتقدونه من وجوب تناغم الكون ونبذ الكراهية، وعدم الجدل واحترام الطبيعة في ظاهرٍ لا يعدو نشر اللطف والتسامح وحقيقته فلسفة فكرية تختلف تماماً عن منهج الإسلام، منهج الولاء والبراء الذي يعيش في ظل البشريّة العدل في ظل التوحيد.

## أصل الأخلاق

في حين يُعلم أن الأخلاق منبثها الأصلي هو الدين، وأن أول سياق تاريخي تحققت فيه الدعوة إلى الأخلاق هو السياق الديني، يدعو الإنسانيون باسم الإنسانية إلى قطع الصلة بين الدين والأخلاق، فيصرفوا الناس عن الدخول في الدين، بحجة أن الإنسانية لا توحدّها إلا الأخلاق.

والعقل وإن كان يثبت حُسن بعض الأخلاق قبل ورود الشرع عليه، إلا أنه لا يستقل بمعرفة التفاصيل، يقول ابن القيم: "غاية العقل أن يدرك بالإجمال حُسن ما أتى الشرع بتفضيله أو قُبْحه، فيُدركه العقل جملةً ويأتي الشرع بتفصيله... فالحاجة إلى الرسل حاجة ضرورية، بل هي فوق كل حاجة".

والخطاب الأخلاقي لا ينفك عن المقولات الدينية، وإن زعم المذهب الإنساني تعالي الخطاب الأخلاقي واستغناءه عن الدين، فمنظرو الأخلاق من الإنسانيين ما انفكوا يستعينون بالمقولات الأخلاقية المقررة في مجال الدين بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

والحركة الإنسانية تدّعي أنه لا حاجة لاستدعاء الدين في الدعوة للأعمال الخيرية والإغاثية وفي الوقت ذاته الذي يستغلون فيه اسم الإنسانية الشامل يَحْضون تبرعاتهم بمن يوافق رؤيتهم الإلحادية كما في مؤسسة ما وراء الإيمان.

**ومن آثار تسرّب الأفكار الإنسانية إلى بعض النفوس** أنهم يعتبرون برامج الدعوة إلى الإسلام المصاحبة للحملات الإغاثية استغلالاً للحاجة في نشر الأيدلوجيا.

**الرد:** لم يدر هؤلاء أن الإسلام هو أعظم هدية تُقدّم للبشرية، وأي شيء تخفيف آلام لحظات في هذه الدنيا الفانية من ترك الروح والجسد يتعذبان في شقاء أبدي.



## العلم ومصادر المعرفة

يكفي دلالة على مكانة العلم في الإسلام أن أول سورة نزلت ابتدئت بالحديث عن العلم ووسائله، كما أن العلم جاء في القرآن في سياقات متعددة، في مئات من المواضع، سوى ما يتعلق به من مفاهيم أخرى كالتعقل والتفقه والتفكير والتدبر وغيرها.

هذا فيما يتعلق بالعلم من جهة كونه صفةً للإنسان، أما فيما يتعلق بحقيقة العلم نفسه، فبالإمكان تقسيم العلوم جملةً إلى قسمين رئيسيين هما:

١. العلوم الشرعية أو علوم الوحي أو علوم السمع، وتنقسم إلى: علوم غاية وعلوم آلة.

٢. العلوم الطبيعية أو التجريبية أو الحياتية أو الدنيوية، مثل العلوم البحتة والعلوم التطبيقية والعلوم الإنسانية .

ومن ضمن الأمور التي دعا القرآن الكريم والأحاديث النبوية إلى اتّباعها وجعلها من مصادر المعرفة هي العقل والتجربة البشرية، وبالرغم من أن مفردة (العلم) التي وردت في القرآن الكريم لا ترادف العلم التجريبي، إلا أن المعطيات القطعية للعلوم هي من مصاديق العلم.

ومن أعظم الأدلة التاريخية على عدم التعارض بين العلم التجريبي والعلم السمعي جمعُ عدد من علماء المسلمين بين تحصيل العلوم النقلية والعلوم العقلية، ولم يكن طلب العلوم التجريبية مقتصرًا على الزنادقة أو أهل العقائد المنحرفة كما يَصُّورُ البعض، بل كان كثير من هؤلاء من أهل الاعتقاد الحسن والسلوك المستقيم.

والقرآن الكريم مملوءٌ بالحث على طلب الحجة والبرهان، والصدق واليقين، والحق والقسط، وهي أمور لا تتحقق إلا بالعلم، فطلبها هو طلب العلم ويقتضي العناية به، فمن تتبّع القرآن وجدته يحث على العلم ويسر كل طريق إليه ويزيل العوائق التي تقف في طريقه كالتحذير من اتباع الظن واتباع الهوى، والنهي عن تقليد الآباء بالباطل، ومحاربة الخرافة من السحر والشعوذة وغيرها.

### منافع الاطلاع على العلوم التجريبية

١. يعين على التفكُّر في الخلق.

٢. يفتح بابًا واسعًا للتفكُّر في عظيم صنعة الله المؤدي إلى خشيته.

والقرآن الكريم عندما يذكر الظواهر الطبيعية، إنما يذكرها في سياق بيان قدرة الله تعالى على هداية الإنسان إلى الحمد والشكر، ودلالة الخلق على الخالق وبيان وظيفة الإنسان، وعلاقته بالكون، ولا يذكرها مجردة كما في كتب الفيزياء والكيمياء والأحياء، فالإسلام جاء لتعبيد الخلق لله وهذه العلوم الدنيوية إنما هي أدوات لتحقيق الغاية.

### مصادر المعرفة

السمع والبصر والفؤاد وسائل لتحصيل العلم والمعرفة:

فالعلوم الدنيوية الحسية ترتبط غالبًا بالعين، ومن هنا جاءت أهمية (الملاحظة) للعلوم التجريبية، وعلوم الوحي ترتبط غالبًا بالأذن والقلب؛ ولهذا سميت بالعلوم السمعية. ومع كون علوم الوحي مبناها على السمع، فإن ذلك لا يعني أنها مجرد أخبار عريّة عن الأدلة العقلية، فهي جامعة للأدلة العقلية والسمعية جميعًا.

**إشكالية الإنسانية العلمية** ليست في اعتبار نتائج العلوم الطبيعية، ولكن في حصر طريق الوصول إلى الحقيقة فيها، إذ حَصَرَ العلميون مفهوم العلم في دراسة الظواهر دون البواطن والغايات.

أما المسلمون فقد تحصّل لهم اعتبارُ جميع مصادر العلم، ولهذا كان أكمل الأمم علمًا المُقِرُّون بالطرق الحسية والعقلية والخبرية، فمن كَذَبَ بطريق منها فاته من العلوم بحسب ما كَذَبَ به من تلك الطرق.

فالعلمية التي تكذّب بالأخبار الصادقة فاتها نصيب من العلوم فوق ما حصّلتها، والعلميون مع ذلك متناقضون، فهم مع زعمهم بأنهم لا يقبلون من الأدلة إلا الدليل العلمي التجريبي يقبلون بخبر العالم التجريبي دليلاً ولو لم يروا تجربته بأنفسهم، أو لم يفهموا عمله.

### مشروعية العلوم الطبيعية

الأخذ بالعلوم الطبيعية التجريبية ألصق في القرآن بباب **تسخير الأرض للإنسان** و**باب إعداد القوة** وليس مندرجًا تحت العلم الممدوح في القرآن وهو العلم بالله وبشرعه، وينبغي أن يكون أصل مشروعيته قول الله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} [الأنفال: ٦٠].

**ومن آثار ما سرى إلى بعض المنتسبين إلى الإسلام من نزعة علموية:** استنكارهم وصف القوارع التي تصيب الكفار من زلازل أو فيضانات أو خسوف أو غيرها بأنها عقوبات إلهية، ويصفونها بالظواهر الطبيعية المادية.

فبعضهم يقول: لو كان ذلك حقًا لماذا تأخرت العقوبة كل هذا الوقت وقد وقعت منهم شروؤ أعظم؟ ولماذا لم تستأصل الكوارث شأفة الكفار بالكلية؟ وما هي الكوارث الطبيعية تصيب المسلمين أحيانًا فهل هي عقوباتٌ أيضًا؟

### الجواب:

١. قد تصيب الآياتُ بعض المسلمين بذنوبهم، وتكون لآخرين ابتلاءً وتطهيرًا وتمحيصًا، قال تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} [الشورى: ٣٠].

٢. وقوع العقوبات الكونية على الكفار أمره إلى الله جل جلاله توقيئًا ومقدارًا، وإصابة لقوم وصرْفُهُ عن آخرين لله في ذلك كله الحكمة البالغة.

٣. لا يمتنع أن يجتمع للآية الكونية سببٌ غيبي وسببٌ ظاهر طبيعي؛ كخسوف الشمس وخسوف القمر وإرسال الريح.

### الأخذ بالأسباب

هذا المبدأ من أصول العلم التجريبي، وفي القرآن والسنة تنبيه إلى أن الإيمان بالقدر والأخذ بالأسباب لا يتعارضان، فيتوكل المسلم على الله مع جدّه في السعي والعمل واحتياطه من المخاطر، فلا ينبغي الركون

إلى الأسباب المادية والتعلق بها، والتعلق الكلي بالعلم التجريبي، والغفلة عن مسبب الأسباب سبحانه وضعف التوكل عليه.

## معركة المصطلح

التعامل مع مصطلح ما لا يقف عند الحدود اللغوية، فلا بد للنظر إلى المعنى والمدلول والمفهوم في سياق بيئته وجذوره التاريخية والثقافية كما ننظر إلى اللفظ والمنطوق.

وعندما يراد لمضامين مصطلحات ما أن تهيمن على ثقافتنا فإنه لا بد من الحكم على المصطلح بأدواتنا العلمية، فالاستسلام للمصطلحات الوافدة بما تتضمنه من حمولة فكرية يقتل الذات، ويفقد الخصوصية والتميز الحضاري، ويجعل المسلم في غربة عن دينه وثقافته ولغته، ويعيش في دوامة من التناقض بين اعتقاده وثروة أسلافه وبين ما يسمعه ويعيشه في منظومته الحضارية.

إن حزمة المصطلحات التي تتبناها العولمة كالحرية (الليبرالية)، وحقوق الإنسان، والسلام، والإرهاب، والمدنية وغيرها، هي مصطلحات ينبغي الحذر والتحرز عند استعمالها؛ لأنهم يسعون إلى فرض قيم ومفاهيم معينة تتفق مع نظرتهم للكون والحياة والإنسان، وهي نظرة مغايرة للإسلام.

إن من أساليب التضليل التي يسلكها الغربيون تسمية أفكارهم وثقافتهم بأنها (عالمية) و(كونية)، وبأن من يخالفها هو خارج نطاق (العالمية) و(الكونية)، فمفهوم الحضارة العالمية يساعد على تسويق بسط سيطرة الثقافة الغربية على المجتمعات الأخرى، وحاجة تلك المجتمعات إلى تقليد الممارسات والمؤسسات الغربية.

## مصطلح الإنسانية

من المصطلحات التي يُراد أن تُعطي صبغةً عولميةً: مصطلح (الإنسانية)، وهذا المصطلح إذا أُطلق في الغرب فإنه غالبًا متضمنًا حمولة ثقافية، ومن هنا نعلم أن من الخطأ أن نقف عند حدود تعريف (الإنسانية) بأنها الإحسان إلى الغير، أو أنها مجرد أخلاقيات لا تستند إلى خلفيات فكرية وفلسفية.

فالبعض إذا سمع من يقول: (الإسلام ضد المذهب الإنساني) قد يتوهم أن الإسلام يقمع الإنسان، ويحجر على عقله وإبداعه، وفي هذا يقع خلط عظيم.

وأيضًا من يقول (الإسلام دين إنساني) هكذا بإطلاق، فإن في هذا الوصف مجازفة إذا استصحبنا المعنى الحقيقي لمصطلح الإنسانية، فلا يصح إذن أن نصف الإسلام بأنه إنساني، إن مثل هذا التجوُّز والتكليف السطحي يؤدي إلى تحريف حقائق الإسلام وتشويه مبادئه.

إنه من المضلل إسقاط المصطلحات التي لا صلة لها بالإسلام على الأفكار والأنظمة الإسلامية، فللإسلام نظام متميز يختلف من عدة وجوه عن الأنظمة الوضعية، ولا يمكن للنظام الإسلامي أن يُدرَس إلا في حدود مفاهيمه ومصطلحاته الخاصة.

وليس المقصود بهجر مصطلح (الإنسانية) إلغاؤه بالكلية، ولكن لما كان بعض من يطلقه يقصد مدلوله المفارق للدين كان الأولى استعمال الألفاظ الشرعية كالبر والإحسان التي هي أكمل في المعنى وأدلى في المقصود من لفظ الإنسانية.

## كلمة أخيرة

١. المسلم الحق لا يجعل فكرة من الأفكار متعالية على مقتضى الوحي، سابقة له في الاعتبار، ويتبني بكل أعماله وجه الله تعالى وهو بذلك أكمل ممن يدّعي أنه يقصد وجه الإنسانية وهو في الحقيقة لا يريد إلا تحقيق عَرَضِ دنيوي نفعي زائل.

٢. حصر مفهوم الدين في معاملة الخالق وحده رهبانية مبتدعة، وحصره في معاملة الخلق وحدهم دنيانية غالية، والحنيفية جمعت بينهما.

٣. المسلم الحق يعتز بانتسابه للإسلام؛ لأنه الاسم الذي سماه الله به، ولا يبتغي عنه بدلاً بأن ينتسب إلى مذهب إنسانوي أو غيره.

٣. المسلم الحق ينطلق في كل علاقاته من هدي الوحي، ويعقد ولايته على مقتضى الإيمان، ولا يزعم أن البشرية كلهم في المحبة والولاية سواء، وهو بذلك لا يعامل غير المسلمين إلا بالبر والقسط والعدل والإحسان.

٤. يُبشِّرُ الإنسانوي بالحب، ويدّعي أنه لا يحمل في قلبه ضغينة لأحد، لكن فلتات اللسان تكشف مكنون الجنان.

٥. المسلم الحق مأمور بالقصد والاعتدال والاتقان، وقد يسّر الله له الأرض وليس للإنسانية منّة في ذلك، فالإنسان خليفة في الأرض باستخلاف الله له، يستمد قوّته من خالقه سبحانه، وليس خليفة عن الله، وإنما بنو آدم يخلف بعضهم بعضًا.

٦. تنتحل الإنسانية الفضائل، وتدّعي أنها تتعالى على جميع الأديان وما ذاك إلا وهم؛ فما فيها من فضيلة فهو من بقايا النبوات، وما فيها من رذيلة فهو من آثار الوثنيات.

تمَّ بحمد الله